تنظيمات الجيش العربي الإسلامي
في العصر الأموي

محمد ابراهيم الكتاني

صدر للدكتور خالد جاسم الجنابي ضمن منشورات وزارة الثقافة والاعلام العراقي كتاب «تنظيمات الجيش العربي الإسلامي في العصر الأموي» ولقد حاول المؤلف ــ ومن خلال استقراء النصوص والاستناد الى الحقائق التاريخية ــ أن يتوصل الى أن :

الدولة العربية الإسلامية خلال العصر الأموي، كانت لها مؤسساتها العسكرية الكاملة بتنظيماتها، وقياداتها، وأساليبها القيادية المميّزة.

فتكلم على : العناصر التي تألف منها الجيش العربي الإسلامي، وبين دور العرب كعنصر أساسي وغالب في الجيش، ومساهمة البربر مع العرب في استكمال تحرير افريقية والأندلس، وتوطيد أركان الإسلام هناك.

وتطرق في موضوع إعداد المقاتلين الى عهد الرسول ﷺ، وإجراءات الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه في استنفار المقاتلين، ثم تطور هذه العملية الى التجنيد بشكله الإلزامي في العصر الأموي.

وبحَث العطاء ومصادره وتوزيعه ووراثته، وكذلك الأرزاق والغنائم. وتكلم على صنوف الجيش وأسلحته، والصنوف الجديدة التي استحدثها الأمويون، وتطور الأسلحة وبراعتهم في استخدام أنواعها، وقابليتهم الفذة في الابتكار والتطوير، وتفوقهم على أعدائهم في هذا المجال.

وتكلم على التعبئة وأساليب القتال وتطور النظم الحربية في القتال وأساليبه، وتطبيق العرب السليم لمبادىء الحرب، وأوضح أن الأسلوب الهجومي التعرضي الهادف الى الدفاع عن النفس وعن الدين وعن حرية العقيدة وعن الأرض كان هو الغالب في جميع أعمالهم الحربية، بسبب رسوخ الإيمان عند المقاتل العربي وشجاعته النادرة وثباته في القتال، وإصراره على تحقيق النصر أو الشهادة.

وتطرق في موضوع (القيادة) الى قيادة الرسول ﷺ العسكرية باعتبارها النموذج الكامل للقائد الممتاز، واختيار الرسول والخلفاء للقواد والصفات والمميزات الواجب توفرها في القائد، والرتب القيادية، وتعيين القواد.

ولخص في (الخاتمة النتائج التي توصل اليها في بحثه وختم بقائمة المصادر والمراجع وفهرس للأعلام).

وكان المؤلف قد بحث في رسالته للماجستير «تنظيمات الجيش في العصر العباسي الثاني» فوجد من خلال البحث والدراسة أن النظم العسكرية ــ التي بلغت الذروة في التنظيم خلال العصر العباسي ــ لابد أن يكون لها أسس ومبادىء وتنظيمات وضعت في العصور السابقة.

لذا أصبح من الضروري الكشف عنها وإبرازها لإعطاء صورة واضحة عن التطور الذي وصل اليه الجيش المغربي الإسلامي، وأصبح من واجب المعنيين بكتابة التاريخ العربي الإسلامي إبراز دور العرب الحضاري والإنساني الذي حاول كثير من الكتاب والباحثين الأجانب طمس معالمه كجزء من الحرب الحضارية التي تشن على الأمة العربية.

فتاريخ العرب العسكري حافل بكل ما يستحق الدراسة والتسجيل بكل اعتزاز وفخر، سواء من حيث الفنون الحربية، على مستوياتها المختلفة، أو بما زخر به من أمثلة رائعة في العبقرية العسكرية في القيادة وقيادة الحرب، ومن ءايات الشجاعة والبطولة والفداء (ص / 7 ــ 8).

ونظرا للروح الطيبة النبيلة التي تحدث بها المؤلف عن الأمة المغربية النبيلة وموقفها من الفاتحين العرب المحررين، والامتزاج التام الذي تمّ بين الفئتين في خوض معارك التحرير ــ وذلك ما أهله لأن يدخل في نطاق (مجلة الأكاديمية)

فقد ارتأيت أن أعرض على القارىء فيما يلي الصفحات التي وردت فيه عن هذا الموضوع الحيوي البالغ الأهمية.

فقد جاء في ص (42 — 45) مايلي :

«وتطالعنا ظاهرة اشتراك البربر كعنصر فعال من عناصر الجيش الإسلامي في شمال أفريقية والأندلس».

«وقد بدأ دخول البربر في الإسلام تدريجيا مع دخول القوات العربية الى المغرب، وبعد إنشاء القيروان كانت السرايا والغزوات تخرج الى المناطق المجاورة، فبدأ الإسلام يتغلغل بين صفوف البربر بواسطة كبار التابعين، الذين كان القادة والولاة كأبي المهاجر، وعقبة بن نافع وحسان بن النعمان، وموسى بن نصير يبعثون بهم الى مختلف مناطق المغرب لتعليم البربر مبادىء الإسلام».

«وعندما كان عقبة بن نافع مقيما في برقة في ولاية عمرو بن العاص على مصر جمع اليه من أسلم من البربر وضمهم الى الجيش الوارد اليه من الشام من قبل معاوية، وسار الى افريقية، فأسلم على يده خلق من البربر وفشا فيهم دين الله..» (ياقوت، معجم).

وفي خلافة عمر بن عبد العزيز ولى المغرب اسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر، في سنة 100 هـ / 718 م فسار فيهم أحسن سيرة، وقرأ عليهم كتب الخليفة عمر بن عبد العزيز التي يدعوهم فيها الى الإسلام، فغلب الإسلام على المغرب. (ابن عبد الحكم : فتوح مصر).

كانت الدعوة الى الاسلام في المغرب قد أدت مهمتها فأخذت جماعات من البربر بعد اعتناقها الإسلام تقاتل الى جانب المسلمين، ونتيجة لسياسة القائد حسان بن النعمان القائمة على فهم العقلية البربرية والتودد الى البربر واحترام استقلالية قبائلهم، وقف البربر موقف الترحيب من حملة حسان على مناطق البربر، بعد أن سئموا من سياسة زعيمة البربر (الكاهنة) بسبب ما نزل بهم من خراب، وطلب قسم كبير منهم الأمان من حسان، وقد اشترط حسان مقابل هذا الأمان أن يعطوه من جميع قبائلهم اثنى عشر ألفاً ليكونوا مع العرب مجاهدين فأجابوه، وأسلموا على يديه، فعقد لواءين لولدي الكاهنة كل منهما على ستة آلاف فارس وأخلطهم مع العرب يجولون في أفريقية يقاتلون الروم ومن كفر من البربر.

وحرص موسى بن نصير على تعليم البربر مبادىء الإسلام فترك جماعة من العرب يعلمونهم القرآن، ويفقهونهم في الدين.

وكان للفتح العربي الإسلامي الأثر الكبير في استثارة حماس هؤلاء البربر وتفتح نشاطهم بعد أن حاولت السيطرة الرومانية الطويلة أن تفرض عليهم العزلة حتى يظلوا في مكانهم من حياتهم الأولى.

وقد شارك البربر في هذه الفتوح بأعداد كبيرة، وكان لهم فيها النصيب الأوفر، ففي بداية فتح الأندلس كانت القوة التي قادها طارق بن زياد قبيل عبوره الى الأندلس تتألف من اثنى عشر ألفا جميعهم من البربر، عدا بعض كبار الجند العرب وموالي الأمويين (ابن عبد الحكم) ممّا يعطي الدليل القاطع على تغلغل الإسلام في نفوس البربر واطمئنان العرب اليهم.

ومما لاشك فيه أن تعزيز الجيش العربي وتطعيمه بعناصر من البربر على معرفة جيدة بطبيعة الأرض. واتقان لأساليب حرب الجبال كان له نتائج إيجابية في استكمال فتح المغرب والأندلس. وقد دخلت أفواج البربر تقاتل الى جنب العرب معلنة بداية الانقلاب الجذري في تاريخ البربر وارتباط الفريقين بمصير واحد، وقضية واحدة، منذ ذلك الحين. كما أن اختلاط الدماء بين العرب والبربر كان كفيلا بأن يمد الدم العربي بدفقة جديدة حارة من النشاط والقوة، وهي التي مهدت لانسياح العرب في بلاد الأندلس.

والبربر جنس محارب، شديد الغيرة على حريته، وهم يشبهون العرب في نواح عدة، فهم ــ مثلهم ــ بدوٌ رحّل في أرض محدودة. يشنون الحرب على منوالهم، وهم ــ مثل العرب ــ قوم ألفوا الاستقلال منذ القدم، لأن الاحتلال الروماني ظل في العادة مقصورا على الساحل في أقصى الغرب من افريقية الشمالية. وهم يتبعون نفس النظام السياسي القائم على حرية الرأي المتأثر بالنظام القبلي، (دوزي : «تاريخ مسلمي اسبانيا»)، ومن الأمثلة على شدة تمسكهم بالحرية وغيرتهم عليها أن والي أفريقية يزيد بن أبي مسلم عندما أراد أن يضع حرسه من البربر في أيديهم ويضع عليها كلمة (خرسى) غضبوا وثاروا عليه وقتلوه. (البلاذري : «فتوح البلدان»).

لقد تتابعت هجرات البربر الى الأندلس مشاركين العرب في الفتوحات والاستيطان، الا أن هجرات البربر كانت أوسع، وأعدادهم أكثر. يدفعهم الى ذلك تمسكهم بالإسلام، وحماسهم للفتح، بالرغم من حداثة عهدهم بالإسلام، وكانوا يعتبرونه الأساس الأول في النهوض بأنفسهم، والاحتفاظ بحقهم كأنداد للعرب، وسادة في البلاد المفتوحة وأصحاب حق في الغنائم والأرضين. ولهذا فالفضل في إسلام أهل الأندلس يرجع الى هؤلاء البربر الذين آمنوا بالدين الجديد بقوة وصدق، واحتفظوا بهذا الإيمان لأنه يكسبهم حقوقا معنوية ومادية لا يبلغونها بدونه، (فونس : «فتح الأندلس»).

ونحن بدراستنا لعناصر الجيش في بلاد المغرب والأندلس في هذه الفترة لا يمكننا أن نعتبر العرب والبربر عنصرين مختلفين، لأن الروابط الدينية والاجتماعية والمصيرية المشتركة التي جمعت بينهما، واشتراكهما في الفتح والاستيطان جعلتهما عنصرا واحدا، بخلاف العناصر الأجنبية في المشرق من الموالي وخصوصا الفرس...).

وقال في ص 54 :

«وقد دخل في ولاء بني أمية عدد كبير من أهل المغرب، كما دخل عدد كبير في ولاء عمالهم من أمثال موسى بن نصير...»

«وزادت أعداد الموالي في الأندلس زيادة عظيمة...»

ولم يكن وضع الموالي في الأندلس في نفس الوضع الذي كان فيه موالي المشرق، فهناك كان المولى في وضع اجتماعي أقل من وضع الحر، أما في الأندلس فقد كان الولاء شارة امتياز. وكان للموالي منزلة عالية بين عرب الأندلس، ويرجع لزعماء الموالي... الفضل في انتصار عبد الرحمان الداخل وظهور الدولة الأموية في الأندلس، (أخبار مجموعة).

وقال في ص 74 :

«وممّا يلفت النظر أن تجنيد المقاتلين في المغرب والأندلس لم يكن الزاميا أو خاضعا لإجراءات وقواعد صارمة، كما هو الحال في الأقاليم الشرقية، وإنما كان طوعيا واختياريا بسبب تمسك البربر بالإسلام، وحماسهم للجهاد».

وقال في ص 217 :

«وكان لاختيار قادة تحرير أفريقيا وبلاد الأندلس من أمثال عقبة ابن نافع، وحسان بن النعمان، وموسى بن نصير، الأثر الكبير في تلك الربوع، فقد ساهموا بنصيب وافر في كسب قبائل البربر وتعليمهم مبادىء الإسلام فتسارعوا للانضمام اليه. والجهاد تحت رايته، وقد أدت جهود عقبة بن نافع وسياسته المستمدة من مبادىء الإسلام أثناء ولايته لبرقة في سنة 21 هـ / 641 م الى قيام أهلها بإرسال خراجهم الى والي مصر من غير أن ياتيهم حادث أو مستحث».

«ويشير البلاذري (فتوح) الى أن عمرو بن العاص كتب الى عمر بن الخطاب رضي الله عنه يعلمه بأنه قد ولى عقبة بن نافع الفهري المغرب فبلغ زويلة وأرقن بين زويلة وبرقة أسلم كلهم، حسنة طاعتهم، قد أدى مسلمهم الصدقة، وأقر معاهدهم بالجزية، وأنه قد وضع على أهل زويلة ومن بينه وبينها ما رأى أنهم يطيقونه، وأمر عماله جميعا أن يأخذوا الصدقة من الأغنياء فيردوها الى الفقراء».

ويعود في الخاتمة التي لخصّ فيها النتائج التي توصل اليها في دراسته الى التركيز على الالتحام بين العرب والبربر فيقول :

«وتشكل مساهمة البربر مع العرب في تحرير المغرب وفتح الأندلس ظاهرة مميزة ومشرقة في التاريخ العربي الإسلامي حيث كان لجهود القادة الأوائل من أمثال عقبة ابن نافع، وحسان بن النعمان، وموسى بن نصير، الدور الكبير في دخول البربر الى الاسلام والإيمان به بقوة وصدق، فشاركوا العرب في حمل رسالة الإسلام، وتوطيد أركانه في المغرب والأندلس، وارتبطوا مع العرب منذ ذلك الحين برباط الأخوة الحقيقية والمصير الواحد، والمصالح والأهداف المشتركة». انتهى.

ونظرا الى أن النسخة التي بين يدي من الكتاب سقطت منها كراسة عند جمع أوراقها وخياطتها، فإني لا أدري ما إذا كان المؤلف قد تناول الموضوع مرة أخرى في الكراسة المحذوفة من هذه النسخة فيما بين الصفحات 129 ـــ 160.

بقي أن أشير ـــ إضافة الى ما ذكره المؤلف ـــ الى فضل هذا الامتزاج الذي تمّ منذ أوائل الفتح الاسلامي بين العنصرين، في قيام الخلافات الإسلامية التي قامت في المغرب : فاطمية، وإدريسية، وقيام دولة المرابطين العظيمة ودورها العظيم في نشر الإسلام في الصحراء الكبرى وجنوبها، زيادة على دورها في إنقاذ الأندلس

وتوحيدها مع أفريقيا الشمالية والغربية، وفي قيام الخلافة الموحدية العظيمة، وفضلها في الدفاع عن الأندلس ودور شعبها الباسل في التطوع في جيش صلاح الدين الأيوبي لتحرير فلسطين والقدس الشريف من براثن الصليبيين المتوحشين. والدولة المرينية، والخلافتين السعدية والعلوية.

وقد كان من بين آثار تغلغل الإسلام في النفوس أن لم يبق في بلاد المغرب العربي مسيحي مغربي واحد، من غير أن يرغم أي مسيحي على التخلي على دينه، مع أن النصارى العرب بقوا في مصر والشام وفلسطين والعراق متمتعين بحريتهم الدينية الكاملة.

ويظهر أن المغاربة اعتبروا النصرانية دين المستعمر الروماني، فلما حررهم الإسلام من استعماره، نبذوا ديانته أيضا !

والى جانب ما امتاز به الإسلام من كونه (دين الفطرة) التي فطر الله الناس عليها، التي لا تثليث فيها ولا صلب ولا فداء، ولا تماثيل ولا ايكليروس ولا صكوك غفران ! ــ وقد لفتت هذه الظاهرة نظر المؤرخ المستشرق الفرنسي جورج مارسيه فعلق عليها قائلا :

«في أقل من قرن واحد اعتنق العدد الأعظم من أبناء أولائك المسيحيين الإسلام، في حماس يجعلهم راغبين في اغتنام الشهادة، وقد تمت النقلة بصورة نهائية خلال القرنيين الأول والثاني الهجريين... غير تاركة في بلاد المغرب سوى بقع ضئيلة، أصبح حتى مجرد الاعتقاد في وجودها أمراً مشكوكا فيه !.

وبينما كانت معظم البلاد التي انتشر فيها الإسلام، تحتفظ بطوائف مسيحية ــ كانت لها مكانة مرموقة في الدولة احيانا ــ مثلما هو الحال في جبل لبنان في الشام، ونصارى مصر، والمعاهدين المستعمرين في الأندلس... الا أن وطن القديس أغسطين (بلاد المغرب) لم يعرف لذلك نظيرا». (بنقل صابر محمد دياب حسين في «بلاد المغرب في القرن الأول الهجري» ص 139 مكتبة السلام العالمية ش الفلكي القاهرة، 1404 ــ 1984). ويلاحظ أن تعبير مارسيه عن العدد الأعظم من المغاربة الداخلين في الإسلام بأنهم من أبناء أولائك المسيحيين ! مع أن الواقع التاريخي يثبت أن انتشار المسيحية في المغرب كان محدودا جدا ممّا يجعل تعبيره غير دقيق.

هذا وقد كان يعيش في المغرب في أغلب الأحيان نصارى أجانب ديبلوماسيون وتجار وأطباء ونحوهم، في نطاق نظام المعاهدين الاسلامي كما أن اليهود المغاربة كانوا متمتعين بحريتهم الدينية الكاملة التي كفلها لهم نظام (الذمة) الإسلامي العادل.

ومن جهة أخرى، فقد ساهم سكان (بلاد المغرب) — عربا وبربرا — في إقامة صرح الحضارة الإسلامية العربية المغربية ذات الطابع المتميز في مختلف الميادين المادية والروحية والفكرية والجهادية لنشر الإسلام والدفاع بين الحين والحين.

وناهيك بالنضال البطولي المتواصل على امتداد ساحة المنطقة الشاسعة لمقاومة الاستعمار الاستيطاني الصليبي العنصري الوحشي : البرتغالي والأنجليزي والفرنسي والإسباني والإيطالي والدولي.

وقد اعتمدت هذه الأنواع الاستعمارية الخبيثة كلها على ما عرف (بالسياسة البربرية) الشهيرة، القائمة على التفرقة العنصرية بين العرب والبربر، والبداية بتحويل هؤلاء عن الإسلام الى المسيحية، في سبيل القضاء على الإسلام في المنطقة كلها، على غرار ما تم في بلاد الأندلس الشهيدة.

وقد قاوم هذا المخطط الجهنمي المغرق في الخيال المريض، كل من العنصرين الملتحمين بلحمة العقيدة الإسلامية السمحاء، والثقافة والفكر الإسلاميين، والتاريخ البطولي الطويل المشترك والخئولة والتحام المصالح الحيوية.

وفي غمرة هذا الجهاد الملائكي لرد العدوان الأثيم، استطاع مغاربة (المغرب الأقصى) أن يقضوا — نهائيا، والى الأبد ! — على الامبراطورية البرتغالية العالمية !

وكان الشعار الذي كانت تهتف به الجماهير المحتجة في جنبات جامعة القرويين بمدينة فاس، وبقية المساجد الكثيرة من المدن المغربية ضد الظهير البربري المقنن لهذه التفرقة المجرمة : (ولا تفرق بيننا وبين إخواننا البرابر).

وقد قدم إلى جلالة ملك المغرب محمد الخامس رحمه الله وفد يمثل علماء فاس ووجهاءها، برياسة أحد كبار علماء المغرب ووزير العدل سابقا عريضة احتجاج ضد السياسة البربرية الإجرامية — مذيَّلة بتوقيعات كثيرة وكان من بين المطالب التي تضمنتها :

(اعتبار جميع المغاربة مسلمين، ـــ ما عدى اليهود ـــ بمعنى أنه لا توجد ملة ثالثة للمغاربة الوطنيين).

وقد وقع سكان مدن أخرى عرائض تتضمن نفس المطالب.

وكان تلاميذ مدارس جمعية العلماء المسلمين بالجزائر يغنون

شعب الجزائـــر مسلـــم   والى العروبـــة ينـــتسب

بينما كنا نحن في المملكة المغربية نتغنى بنشيد يقول :

مسلمـــاً عشت وحسبـــي   أن أرى في المسلـــمين
مـــن أقامـــوا ديـــن ربي   رغـــم أنـــف الكافريـــن
مسلمـــاً عشت وحسبـــي   ذاك فخـــراً وكفـــى !

وكان طلبة شمال افريقيا المسلمون في فرنسا يتغنون بنشيد جمعيتهم :

حيـــو أفريقيـــا   حيـــو أفريقيـــا يـــا عبـــاد
شمالها يبغـــي الاتحاد   أبطـــالها تـــأبى الاضطهـــاد
أيـــن رومـــا وقواهـــا   واستعمارهـــا الشديـــد ؟
أيـــن اسبانيـــا ودهاهـــا   وصلـــيبها الحقـــود
قـــد حطمنـــا أغـــلالها   واستقـــلت منها البـــلاد

وها هي البلاد قد استقلت بالفعل، ومازالت وحدة شمال افريقيا ـــ المغرب العربي ـــ لم تتحقق لحد الآن، نتيجة رواسب استعمارية لم يتم بعد التغلب عليها ومازالت جهود المخلصين متواصلة في هذا السبيل(*).

لقد زود الإسلام سكان المنطقة بطاقة نضالية روحية خارقة، مكنتهم من تحقيق المعجزات التي لم تكن تخطر ببال كثير من الناس، وهي الطاقة التي تتواصل جهود الأعداء للقضاء عليها.

(*) كتب الله سبحانه وتعالى أن تتحقق أمنية قيام الوحدة بين دول المغرب العربي، فأُعلن بمراكش عن إنشاء «اتحاد المغرب العربي» يوم الجمعة 11 رجب 1409 الموافق 17 فبراير 1989، عقب لقاء قمة بين قاده الدول الخمس : المغرب والجزائر وتونس وليبيا وموريطانيا.